۱۶۵۸۳

مجله	حضارة الاسلام
تاریخ نشر	ج۱ د۲ / ۱۳۹۱
شماره	۳-۴ سال دوازدهم
شماره مسلسل	
محل نشر	دمشق
زبان	عربی
نویسنده	محمد عبد الکبیسی
تعداد صفحات	۸۱ — ۹۲
موضوع	نظرة الشریعة الاسلامیة الی دور المجهر فی سنخ الانزاف
سرفصلها	الاسلام وحقوق انسانی ورعایة المجتمع
	شریعت
کیفیت	
ملاحضات	

نظرة الشريعة الإسلامية
إلى
دور الجمهور في منع الانحراف ووقاية المجتمع

للدكتور حمد عبيد الكبيسي
ـ بغداد ـ

تمهيد

عني الاسلام ـ منذ فجره الاول ـ ببناء مجتمع سليم كقاعدة لقيام الدولة التي جاء لاقامتها ولما كانت اقامة المجتمع السليم لا تتحقق بدون اعداد اللبنات الاولى منه ، وهم الافراد ، فقد كان للفرد النصيب الاوفى من مهمة البناء والاعداد فكان مدار عملية مركزة ومحكمة للاصلاح والتهذيب والتربية ، على أساس أن الفرد الصالح هو اساس المجتمع الصالح .

وللفرد ـ في التصور الاسلامي ـ شخصيتان : شخصية مستقلة يسأل عن نفسه في روحه وعمله وعقله وماله ، واليها تتجه التكاليف الفردية . شخصية عامة باعتباره جزء من البناء الاجتماعي ، يسأل بها ـ بالتضامن مع الآخرين ـ عن صلاح هذا المجتمع وما دام يقدم له من خدمات . والى هذه الشخصية تتجه التكاليف الجماعية ، وما لذلك من اثر في ابراز دور الجمهور في منع الانحراف ووقاية المجتمع .

وبقدر نصيب الفرد من ادراك الحقائق والشعور بالمسؤولية وقوة الخلق والارادة ، وسمو الروح وشرف الغاية ، يكون نصيب المجتمع من الصلاح والقوة والنقاء فصلاح المجتمع من صلاح افراده ، وفساده واضطرابه من فسادهم واضطرابهم ومن هنا كانت العناية بتربية الفرد تربية قويمة يقوم عليها المجتمع الفاضل على اساس من تعاليم الاسلام ، التي سنتكلم عنها بشيء من الايجاز قبل الدخول في الكلام عن دور هذا الفرد متضامنا مع الآخرين ـ الذين نطلق عليهم اسم الجمهور ـ في منع الانحراف ووقاية المجتمع .

علما بأن اهمية تكوين الفرد تكوينا خاصا ناتجة عن كون الفرد ذا مسؤولية جماعية مفروضة عليه لا يملك التملص منها او التخلي عنها ، فهو ان فعل ذلك تعرض للحساب . ومن هنا كان لا بد لهذه المسؤولية من ان تترتب على ما تترتب

عليه بقية التكاليف من مواصفات خاصه لهذا المكلف . وهذه المواصفات منها ما هو حق على الفرد لابد وان يؤديه ، ومنها ما هو حق له لا بد وان يؤدى له وبقيام الفرد بالحقوق التي عليه وحصوله على الحقوق التي هي له ، تولد الشخصية الفردية التي هي مادة بناء الشخصية الجماعية القادره على اداء دورها في منع الانحراف ووقاية المجتمع ومن اجل هذا سنقسم هذا البحث الى قسمين . نتكلم في القسم الاول منه عن تكوين الفرد الفاضل واثره في تكوين الجماعة الفاضلة ، ثم نتكلم في القسم الثاني عن دور هذه الجماعة « الجمهور » في منع الانحراف ووقاية المجتمع .

القسم الاول

تكوين الفرد الفاضل واثره في تكوين الجملة الفاضلة

يتكون الفرد الفاضل — في نظر الاسلام — عبر سلسة من الفرس النقي في نفسه وجوارحه ، ثم يكمل بنائه بحصوله على حقوقه التي هي المرتكز لقيامه بواجباته .

وفي سبيل ذلك خطت الشريعة الاسلامية خطوتين :

الخطوة الاولى : تربية الضمير الديني في الفرد : بحيث يتحكم في باطنه وظاهره فالضمير الديني هو الذي يربط الفرد بالرقيب الذي لا ينام ، وبالعالم الذي لا يجهل وحينئذ لن يكون من اليسير على هذا الفرد — وهو بهذا الموقع — ان يكون على المتعرج ما دام قد نصب من ضميره رقيبا وحسيبا وبهذه الرقابة يكون الفرد قد حمى نفسه ، وسلمت له الحياة بهذا المدد الذي جعله الله اساس لحياة الانسان منذ ان خلقه وعلق به عمارة الكون : **« قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١)**

وللضمير الديني عند الفرد سلطان قوي واثر فعال يفوق سلطان القانون بكثير ، من حيث ان الضمير حاضر لا يغيب ، اما القوانين فقد جبلت النفوس على الخروج عليها لانها مفروضة من سلطة خارجة عنه ومن اجل هذا كانت القوانين المتسمة بالاقناع والحجة اكثر تقبلا واستجابة(٢) .

(١) سورة البقرة — ٣٨

(٢) تكوين الضمير الديني عند الفرد . الدكتور عبد العظيم شرف الدين . مجلة الازهر الجزء السادس السنة الرابعة والثلاثون .

والضمير الديني سلطة ذاتية نابعة من داخل الفرد ، تهيمن على شؤونه ، وتشرف على تصرفاته .

ولقد عبر القرآن الكريم عما نسميه الضمير الديني « تقوى الله » فندب المؤمنين اليها ، وناداهم بوصف الايمان ليحملهم حملا قويا على تنفيذ ما ندبهم اليه : **« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وانتم مسلمون »(٣)** ونظرا لاهمية التقوى في تحديد علاقة الفرد بالآخرين نرى الانبياء جميعا قد اتفقوا على هذا المبدأ فما من نبي الا وقد دعا الى تقوى الله من اجل ان يكو هناك ضمير ديني مؤثر : **« والى عاد اخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره افلا توقنون »(٤) « كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم اخوهم صالح الا تتقون »(٥)** والامثلة على ذلك كثيرة .

ومن اجل هذا شرع الله من الاسباب ما يوصل الفرد الى هذا المكان المرسوم ومن بين تلك الاسباب (العبادات) التي هي في ظاهرها علاقة العبد بربه ، وهي في معناها تربية الضمير الديني لدى الفرد الذي يجعله مشدودا الى الجماعة بقوة روحية تحكم ميوله وارادته ، وتوجه سلوكه ، فتحقق الرابطة الاجتماعية في نفسه قبل ان تتدخل القوانين لرسم الطريق .

فمن صلاة تقي الفرد مواقع السقوط الى صيام يصقل العقل ويهذب الروح ويعف اليد واللسان ، الى زكاة تغرس في الفرد حب التعاون والشعور بالمسؤولية ، والتضحية في سبيل الآخرين ، الى حج يبني في الفكر المسحة الاجتماعية الواسعة . وهكذا نجد ان العبادات الاسلامية تتجه الى تهذيب ضمير الفرد ليكون مستعدا للتلاحم مع المجتمع الفاضل في غاياته الفاضلة ، فان القلوب اذا اصلحت واستقامت فانها تحسن مقاصدها الاجتماعية ، ولا حياة لتكافل اجتماعي لا يقوم إلا على التكافل المادي وحده . **« ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم ولكن انما ينظر الى قلوبكم واعمالكم »(٦)** ثم ان الجريمة تبدأ اول ما تبدأ بضمير الانسان وفكره قبل ان تأخذ طريقها الى حيز التنفيذ : **« انما الاعمال بالنيات وانما لكل**

(٣) سورة آل عمران — ١٠٢

(٤) سورة هود — ٥

(٥) سورة الشعراء — ١٤١ — ١٤٢

(٦) انظر فيض القدير ٢/٢٧٧ ورواه مسلم بلفظ : ... الى اجسادكم ولا الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم .

امرىء مانوى »(٧) الاثم كماحاك في الصدر وكرهت ان يطلع عليه الناس » (٨) .

وحقيقة ينبغي ان تكون ساطعة، هي ان الضمير الديني اذا ما تربى على هذا النحو الذي رسمه الاسلام فانه يتوفر لدينا بعد ذلك اقوى الاسباب لوقاية المجتمع ومنع الانحراف في كافة المجالات حيث تختفي الانانية وتتغلب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد حتى ولو كان في ذلك هلاك الفرد نفسه . ولعل في هذه القصة التي ذكرها ابن القيم خير دليل على ذلك : فانه روى ان رجلاً وجد في خربة بيده سكين متلطخة بالدم ، وبين يديه رجل يتشحط في دمه ، فساله علي رضي الله عنه فقال : انا قتلته ، فقال علي : اذهبوا فاقتلوه ، فلما ذهب به جاء رجل مسرعا ، فقال : يا قوم لا تعجلوا به . ردوه الى علي فردوه ، فقال : ياامير المؤمنين ماهذا صاحبه ، انا قتلته ، فقال علي للاول ما حملك على ان قلت ماقلت ولم تقتله ؟ قال يا امير المؤمنين : وما استطيع ان افعل وقد وقف العسس على الرجل يتشحط في دمه ، وانا واقف وفي يدي سكيني ، وفيها اثر الدم وقد اخذت في خربة فخفت الا يقبل مني فاعترفت بما لم اسمع واحتسبت نفسي عند الله ، فقال بئس ما صنعت . فكيف كان حديثك قال : اني رجل قصاب خرجت الى حانوتي في الغلس فذبحت بقرة وسلختها فبينما انا اسلخها والسكين في يدي اخذني البول فاتيت خربة كانت بقربي فدخلتها فقضيت حاجتي ، وعدت اريد حانوتي فاذا انا بهذا القتيل يتشحط بدمه فراعني امره فوقفت انظر والسكين في يدي فلم اشعر الا باصحابك قد وقفوا علي فاخذوني فقال الناس : هذا قتل هذا ، ماله قاتل سواه فايقنت انك لاتترك قولهم لقولي فاعترفت بما لم اجنه .

فقال علي للمتهم الثاني وانت كيف كانت قصتك ؟ فقال : اغواني ابليس فقتلت الرجل طمعا في ماله ، ثم سمعت حس العسس فخرجت من الخربة واستقبلت هذا القصاب على الحال التي وصف فابتدرت منه ببعض الخربة حتى اتى العسس فاخذوه واتوك به فامرت بقتله ، وعلمت اني سابوء بدمه ايضا فاعترفت

(٧) جزء من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشهور الذي رواه احمد واصحاب الكتب الستة . انظر فيض القدير ١/٣٠ .

(٨) صحيح مسلم بشرح النووي : ١١١/١٦

بالحق(٩) . وهكذا نرى ان بقية الضمير الديني عند هذا القاتل كانت من القوى بحيث لم تفارقه حتى وهو يتحدر الى درك الجريمة . فاثرت فيه تاثيرا ايجابيا عبر عنه القاتل بقوله : فعلمت اني سابوء بائمه ايضا فكان هذا الضمير الديني على اختلافه ما نعا من وقوع الظلم من الحاكم والمحكوم . ان هذا التكوين للضمير الديني عند الفرد ، يقوم عوج الحياة ويرد كل فرد في المجتمع البشري الى موضعه ، لا يقسر عنه، حتى لتصبح الحياة الاجتماعية باقة زهر لا شوك فيها ويصبح الناس اسرة واحدة ابوهم آدم وآدم من تراب .

الخطوة الثانية : حصول الفرد على حقوقه : فبعد تكوين الضمير الديني لدى الفرد واستعداده بان يكون فردا فاضلا في بناء الجماعة ، لابد من حصوله عى حقوقه المشروعة التي تساعده على رفع مستواه ، وتمكنه من المشاركة في العمل لخير الجماعة واسعادها وتحفظ له كرامته الانسانية وتنمي فيه المواهب التي تؤهله لاستغلال قواه العقلية والجسمانية .

واهم الحقوق التي قررها الاسلام للفرد ، هي : المساواة والحرية .

اولا ـ المساواة :

قرر الاسلام المساواة بين الافراد جميعا وفرضها على المسلمين فرضا بقوله تعالى : « **يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم** »(١٠) . وبقوله عليه الصلاة والسلام : « **ان الله قد اذهب بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم لان الناس من آدم وآدم من تراب واكرمكم عند الله اتقاكم** »(١٠) .

ولعلنا قد لاحظنا ان هذه النصوص قد فرضت المساواة بين الافراد بصورة مطلقة ، فلا قيود ولا إستثناءات وبهذا تكون المساواة مفروضة على العالم كله ، فلا فضل لفرد على فرد باعتبار الجنس او اللون او السيادة او الحكم .

وهنا ياتي دور الضمير الديني لدى الفرد في تنفيذ ما اقره الاسلام من مبدأ المساواة بين الناس ، هذا التنفيذ الذي لا يمكن صدوره عن قسر واجبار بل عن اقتناع نابع من

(٩) الطرق الحكمية ـ ٦٢٥

(١٠) سورة الحجرات ـ ١٣

(١١) رواه ابو داود في كتاب الادب

ضمير يؤمن فيطيع ، يشهد لذلك ما روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع ابا ذر الغفاري يقول لرجل اغضبه : يابن السوداء ، فغضب رسول الله فقال : « طف الصاع طف الصاع : اي تجاوزالامر حده ـ ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى » وهنا تدخل الضمير الديني في حسن التنفيذ ، فوضع ابا ذر خده على الارض وقال للاسود : قم فطأ خدي »(١٢) .

ويسوي الاسلام بين المسلمين وغير المسلمين في الدولةالاسلامية في كل ما كانوا فيه متساوين تحقيقا للوحدة الاجتماعية . ولا يختلف الفرد المسلم عن غير المسلم الا فيما يتصل بالعقيدةفكل ما يتصل بالعقيدة لامساواة فيه . بان معنى المساواة في ذلك هو حمل غير المسلم على غير ما يتفق مع عقيدته . والقاعدة في الاسلام : ان لهم مالنا وعليهم ما علينا وتركهم وما يدينون به حيث : لا اكراه في الدين » .

ثانيا ـ الحرية :

فلا يمكن تصور الفرد المؤثر في المجتمع الا اذا كان هذا الفرد حرا بالقدر الذي يجعله عزيزا لا يذل ، وشجاعا لا يهاب ، وقويا لا يضعف . وعندها يمكن لهذا الفرد ان يكون قادرا علىاداء دوره في اتمام البناء وارساء قواعده .

والحرية في الاسلام ليست انطلاقا من القيود ، بل هي مبنى لا يتحقق بالوجود الا مقيدا . وعلى هذا فان الحر حقا هو الفرد الذي تتجلى فيه المعاني الانسانية العالية والذي يجد القدرة على ضبط نفسه ويتجه بها الى معالي الامور . والحر هو الذي يسيطر على ارادته ولا تسيطر عليه شهواته واهواؤه وانما هو سيد نفسه الى الحدالذي يعرف مالها وماعليها . وان هذه السيادة النفسية التي يتسم بها الحر هي العنصر الاول في تكوين معنى الحرية في نفسه ، وهو القوي حقا . وفي التمييز بين الارادة والهوى يقول عليه الصلاة والسلام : « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب »(١٣) لانه عند الغضب يتملكه الهوى . فاذا ملك نفسه في هذه الحالة فهو الحر حقا لانه حرر نفسه من ربقة الهوى .

والحرية : معنى اجتماعي

---

(١٢) صحيح البخاري ١/١٥

(١٣) متفق عليه ـ انظر المشكاة : ٢/٦٢٤

لا يتصور وجوده الا في مجتمع متكافل ياخذ الافراد منه ويعطون ، واذا كانت كذلك فلا بد ان تكون في جدود يرسمها المجتمع الفاضل من غير ارهاق نفسي .

وان الذين يفهمون الحريةانطلاقا من كل القيود هم عبيد الاهواء الذين لا يرعون حق انفسهم ولا حق المجتمع .

ان الحرية الحقيقية لا تصور كذلك . لان الانطلاق تقييد في جانب آخر يجعلها اعتداء يدفع بالآخرين الى رد فعل مبعثه الخصومة . على ان القيود الضابطة للحرية هي في اصلها قيود نفسية وليست قيودا خارجية ابتداء .

وهذه القيود تتكون من حقيقتين :

الاولى : هي السيطرة على النفس والخضوع لحكم العقل لا لحكم الهوى .

والثانية : الاحساس الدقيق بحق الناس على الفرد ، والا كانت الانانية ، والحرية والانانية ـ نقيضان لا يجتمعان ـ .

ومما لا شك فيه ، ان الناس ليسوا سواء في مراعاة حرية الغير . ومن ثم فان الناس منهم الحر ومنهم غير الحر ، وان ادعى الحرية ، لذلك كان لا بد ان تقيد حرية بعض الناس بقيود خارجية عن النفس بحكم القانون . وحينئذ تكون هذه حماية للحرية وليست قيودا فيها . وبهذا فقط نمكن الفرد من ان ينال قسطه من الحرية التي تبتي فيه الصلاحية للانتماء الى المجتمع الفاضل . والحرية التي منحها الاسلام للفرد من اجل ان يكون لبنة قوية في البناء الاجتماعي هي : حرية التفكير ، وحرية الاعتقاد ، وحرية القول ، وحرية العلم ، وحرية التملك .

فحرية التفكير الفردي تتجلى في تحرير عقله من الأوهام والخرافات التقاليد ، ونبذ كل مالايقبله العقل . ولقد قامت الدعوة الاسلامية نفسها على اساس من العقل . فالقرآن يعتمد في اثبات وجود الله ، ويعتمد في اقناع الناس بالاسلام على استثارة تفكيرهم ، وايقاظ عقولهم ، فيدعوهم الى التفكير في خلق السموات والارض وفي خلق انفسهم ويعيب القرآن على الناس ان يلغوا عقولهم ويعطلوا تفكيرهم ويقلدوا غيرهم ويصف من كانوا كذلك بانهم كالانعام بل اضل سبيلا .

ويترجم القرآن لهذه الاحوال فيقول : « أولم يتفكروا في

انفسهم)(١٤) وقوله: « وما يذكر إلا أولو الالباب » وقوله : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون)(١٥) .

والنصوص من القرآن والسنة على مثل ذلك كثيرة متوافرة مما يحث على حرية التفكير وتحرير العقل من قيود التبعية والتقليد والجمود . لينطلق العقل في مجالات الحقيقة التي تجعل الفرد مخلوقا مفكر بعد أن ربي في الاسلام التربية الصالحة بالعبادات ....

قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا(١٦)

اما حرية الاعتقاد : فان الاسلام هو اول شريعة اباحت حرية الاعتقاد للفرد وعملت على صيانة هذه الحرية وحمايتها الى آخر الحدود. فلكل فرد ـ طبقا للشريعة الاسلامية ـ ان يعتنق من العقائد ما شاء وليس لاحد ان يحمله على ترك عقيدته واعتناق غيرها . الا إذا صاحب ذلك اعتداء بشكل من الاشكال . ولم تكتف الشريعة الإسلامية باعلان حرية العقيدة للفرد ، وانما اتخذت لحماية ذلك طريقتين :ـ

إحداهما : الزام الناس ان يحترموا حق الغير في اعتقاد مايشاء وفي تركه يعمل طبقا لعقيدته ، فان كان ثمة معارضة فلتكن بالحسنى ولبيان وجه الخطأ فان قبل صاحب العقيدة أن يغيرها عن اقتناع فلا حرج وان امتنع فلا يجوز إكراهه أو تهديده « **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا . افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**(١٧) .

الثاني : الزام صاحب العقيدة أن يعمل على حماية عقيدته وان لا يقف موقفا سلبيا . فاذا عجز عن حماية نفسه كان عليه أن يهاجر الى بلد آخر يحترم اهله العقيدة ويتمكن فيه من اعلان مايعتقد **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي**

(١٤) سورة الروم ـ ٨
(١٥) سورة البقرة ـ ٢٦
(١٦) سورة البقرة ـ ١٧٠
(١٧) سورة يونس ـ ٩٩

انفسهم . قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها .)(١٨)

اما حرية القول : فقد جعلتها الشريعة الاسلامية حقا لكل فرد . بل جعلت القول واجبا على المسلم في كل ما يمس الاخلاق ، والمصالح العامة والنظام العام . وإذا كانت الشريعة الاسلامية قد قررت حرية القول من يوم نزولها . فانها قيدت هذه الحرية بالقيود التي تمنع من العدوان واساءة الاستعمال وهو مبدأ عام في كل الحريات الممنوحة للفرد كما ذكرنا والنصوص على ذلك كثيرة مثل قوله تعالى : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن**)(١٩) وقوله : « **خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين**)(٢٠) وقوله : « **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم**)(٢١) وقوله : « **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله**)(٢٢) .

اما حرية التملك : فقد قررها الاسلام للفرد ضمن حدود مرسومة تدور بين ثلاثة امور هي اولا : ان تكون الملكية في دائرة منع الضرر ، ثانيا إنه ليس كل شيء قابل لامتلاك الفرد ، وثالثا تقرير بعض الحقوق المفروضة للدولة او للجماعة على الملكية الخاصة(٢٣) .

كما إن لولي الامر العادل ان يتدخل لتقرير القيود على حرية الملكية الخاصة اذا اصطدمت تلك الحرية بمصالح الآخرين ، أوكانت حرية معتدية . كما روي انه كان لسمرة بن جندب رضي الله عنه نخل في حائط رجل من الانصار وكان يدخل هو واهله فيؤديه ، فشكا الانصاري ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله لصاحب النخل : بعه ، فابى . فقال الرسول : فاقطعه ، فابى . قال فهبه ولك مثله في الجنة ، فابى ، فالتفت اليه الرسول وقال انت مضار ، ثم التفت الى الانصاري وقال ، اذهب فاقلع نخله(٢٤) وهكذا نرى ان رسول الله صلى الله

(١٨) سورة يونس ـ ٩٩
(١٩) سورة النساء ـ ٩٧
(٢١) سورة النحل ـ ١٢٥
(٢٢) سورة الاعراف ـ ١٩٩
(٢٠) سورة الانعام ـ ١٠٨
(٢٣) ابو زهرة ـ التكافل الاجتماعي ص ١٠
(٢٤) رواه ابو داود في الاقضية

عليه وسلم لم يحترم تلك الملكية المعتدية . ومع ذلك فان حرية التملك من حيث الاصل مكفولة للأفراد في الشريعة الاسلامية .

هذا هو الفرد الصالح الذي أراده الاسلام لبنة صلبة في البناء الاجتماعي المؤثر لان الظاهرة الاجتماعية تحدث نتيجة عدد كبير من الضمائر الفردية . اي أن الفرد بطريقة ما ممثل في هذا المجتمع تمثيلا إيجابيا له ضغطه ودفعه للحياة ومن هنا كان لطبيعة الضمير الفردي اثره في طبيعة الضمير الاجتماعي . لان الأخضاع الذي يفرضه المجتمع على الفرد ليس الا حالة من حالتين :-

فاما انه إخضاع صالح ، ناتج عن اجتماع عدد كبير من الضمائر الفردية الصالحة التي تفرض سلطانها على الفرد المنحرف، وتلزمه بعدم الخروج عن الحدود المرسومة.

واما انه إخضاع فاسد ، ناتج عن اجتماع عدد كبير من الضمائر الفردية الفاسدة والمنحرفة التي تفرض سلطانها على الفرد الصالح. فهو اما ان يسير معها أو تبعده عن الطريق . وهذا ماحذرت منه الشريعة الاسلامية وتذبت الفرد الى الصمود والمقاومة بقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يكن احدكم امعة يقول : ان احسن الناس احسنت وإن اساءوا اسأت . ولكن وطنوا انفسكم ان أحسن الناس ان تحسنوا ، وان اساءوا ان تجتنبوا اساءتهم »(٢٥)

وبهذا الفرد الفاضل يتحقق المجتمع الفاضل الذي نلقي على ملامحه بعض الأضواء فنقول :

المجتمع المتكافل :

يسعى الاسلام لايجاد مجتمع متكافل تتعاون فيه كل القوى الانسانية بحيث تلتقي على المحافظة على مصلحة الفرد أولا ، ثم يتدرج الامر بهم الى مرحلة صيانة البناء الاجتماعي والعمل على ارساء قواعده المتراصة التي لا ينفذ الدخان من اجرائها .

ويتحقق ذلك بالالتزام بمصالح الآخرين والقيام بها . لان الاخلال بذلك يؤدي الى انهيار المجتمع ويترجم رسول الله صلى عليه وسلم لهذه المعاني بقوله المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا(٢٦) مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر جسمه بالسهر والحمى(٢٧) .

وهذا هو المجتمع المتكافل الذي يؤمن افراده بمسؤولية بعضهم تجاه البعض الآخر . هذه المسؤولية التي هي أول عناصر الحياة الطبيعية للمجتمعات الفاضلة . وفي سبيل هذا التكافل الاجتماعي والمسؤولية الجماعية كان الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم ، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب ، ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وكان كل فرد راعيا ومسؤولا عن رعيته بالمعنى الذي يشمل الحاكم في رعيته ، والرجل في اهله ، والمراة في بيت زوجها والخادم في مال سيده ، والفلاح في ما في يده من الأرض والاجير في ما في يده من العمل . وهكذا يكون المجتمع الفاضل الرشيد .

الرأي العام الفاضل :

وعندما يتحقق المجتمع المتكافل فانه بالضرورة ينتج رايا عاما فاضلا هو أول مظهر من مظاهر هذا المجتمع وللرأي العام الفاضل رقابة نفسية تجعل الشر يخبو فلا يظهر وتجعل الخير في موقع الاعلان والظهور .

وبالرأي العام الفاضل تشعر الجماعة بقوة خفية تعينها على المحافظة على واجهة المجتمع نقية ناصعة . وهذه القوة هي رد الفعل الاجتماعي العام الذي يجعل من الحياء سداً بين الجريمة وبين ان تظهر وتبرز .

فالحياء ، خلق الراي العام الفاضل . لانه يؤلف بين الناس ويجعل الفرد يحس بسلطان الراي العام على نفسه ، وإن الرذيلة التي تؤدي الى ارتكاب الجريمة وتعودها إنما هي انطلاق من القيود الاجتماعية، والحياء هو الاحساس القوي بالقيود النفسية التي تجعل للجماعة وما يرضيها مكانا في نفس المجرم(٢٨) ولذلك حث الاسلام على خلق الحياء فدعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم واكثر من الدعوة فقال مبينا ان الحياء هو القيد الخلقي الاجتماعي : « إن مما توارثه الناس من كلام النبوة الاولى : إذا لم تستح فاصنع ماشئت(٢٩) واعتبر الرسول الحياء خلق الاسلام الذي يتميز به فقال :

(٢٥) انظر المشكاة ٢/٦٢٩

(٢٦) متفق عليه .

(٢٧) متفق عليه

(٢٨) ابو زهرة ـ فلسفة العقوبة ـ ص ٣٠ وما بعدها .

(٢٩) متفق عليه

« لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء »(٣٠) .

ولا شك اننا اذا عالجنا النفوس اعابتها آفة الجريمة بنبث روح الحياء فيها تكون قد قربنا بينها وبين الجمهور وجعلناها قريبة مما يالف الناس . فلا يكون منها ماتنكره الجماعة ، وبالتالي لا يكون منها اجرام وان لم تذهب عن النفس نوازعها .

ولعل ماتراه في بعض السجون من هتك حجب الحياء في نفس المسجونين من الاسباب التي تدفع الى الجريمة ، على ان تفقد الفضيلة قوة من قواها الفعالة التي تبني في النفس قواعدها وتعطيها حصانة دافعة .

ولكي يكون الراي العام طاهراً انيقا لا تظهر فيه القاذورات التي تقذى بها العيون والمآثم التي تجرح النفوس : منع الاسلام من إعلان الجريمة وعد الجريمة المعلنة جريمتين ، جريمة الفعل وجريمة الاعلان .

ولذايقول عليه الصلاة والسلام(٣١) : « يا أيها الناس من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فاستتر ، فهو في ستر الله ، ومن ابدى صفحته اقمنا عليه الحد . ويقول : « ان من ابعد الناس منازل عن الله يوم القيامة المجاهرين ، قيل ومن هم يارسول الله ؟ قال : ذلك الذي يعمل عملا بالليل ، وقد ستره الله ، فيصبح يقول : فعلت كذا وكذا يكشف ستر الله »(٣٢) .

فاعلان الجرائم دعوة اليها وتحريض عليها بالاعلان ، وقد عد الله المعلنين مشيعين للفاحشة فقال : ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة .

وبهذا يكون الاسلام قد بنى جمهورا قويا متماسكا هو اهل لان تناط به مهمات القيادة والسير بالمجتمع الى غايته المنشودة ، وذلك بمباشرته لدوره في منع الانحراف ووقاية المجتمع على النحو الذي سنتناوله فيما بعد .

ـ للبحث صلة ـ

(٣٠) رواه البخاري . انظر المشكاة ـ ٢/٦٢٨ .

(٣١) رواه مالك مرسلا انظر المشكاة ـ ٢/٦٢١

(٣٢) سورة النور ـ ١٩